لقاء مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية
مع الأستاذ الدكتور محمد السيد الجليند
أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة

أولا: التراث والكتب:

هل يرى فضيلتكم أنه لا زال لتحقيق التراث أهمية عند المثقف العربي؟

نعم يا أخي الكريم لا شك أن قضية التراث من القضايا المثارة منذ فترة ليست بالقصيرة فمنذ مطلع القرن العشرين وقضية إحياء التراث من القضايا المثارة بين المثقفين تتجادل فيها الأنظار بين مؤيد لإحياء التراث ومعارض له. ولا شك أن لكل أمة ذاكرتها التاريخية التي تعمل على إحيائها تستنهضها أحيانًا في وقت الأزمات إما لتعيش على ذكراها، وإما لتستنهض ما فيها من قيم تعيش بها وتبعثها بين الأجيال الحاضرة، وتراثنا والحمد لله السمين فيه أكثر من الغث والمفيد فيها أكثر من الضار. ولكن هناك بعض الأنظار التي تركز على قضايا معينة وأيديولوجيات معينة وتحاول أن تستنتج منها حكمًا وتصف بها التراث ككل وهذ خطأ في المنهج.

لا شك أن عندنا أمور قيلت وكتبت في مناسبات تاريخية معينية ينبغي أن ترتبط بمناسباتها ولا نعمل على إحيائها لكن هناك القضايا العامة التي شغلت الأمة قديمًا وما زالت تشغلها حديثًا وفيها مخطوطات على قدر كبير من النفاسة ومن الأهمية وهي التي ينبغي أن يهتم بها المثقفون ويلفتوا الأنظار إلى إحيائها ولا يجدوا لها معارضًا بين مثقف أصيل، وإنما المعارض لها إما مؤدلج يعمل على إحياء إيديولوجيتها التي ينتمي إليها وإما معارض لكل ما ينتمي لما هو إسلام وعربي، وهذان النوعان موجودان وللأسف الشديد صوتهما قد يعلو أحيانًا في وقت الأزمات التي تمر بها الأمة وقد يخفت أحياناً، ولكن المثقفين المتخصصين ينبغي أن يكونوا حريصين على إحياء هذا التراث واستنهاض ما فيه من قيم ومعايير أخلاقية وقيمية واجتماعية وثقافية يعيش بها ويعيش لها الأجيال المستقبلية إن شاء الله.

وما رأيكم في التحقيق التجاري للمخطوطات ؟

تحقيق المخطوطات من العلوم التي أرى ضرورة الاهتمام بها في مراحل التعليم المتقدمة

على مستوى طلبة الماجستير وطلبة الدكتوراه؛ لأن هذا العلم من وجهة نظرنا هو امتداد طبيعي لعلم الجرح والتعديل، وعلم الحديث أو علوم الحديث التي تعتمد في أساسها على نقد المتن ونقد السند أو توثيق المتن وعلوم الجرح والتعديل، هذا العلم يذاع أنه علم تعلمناه من الغرب أو من المستشرقين ولكن ينبغي أن يعلم الشباب أن هذا العلم أصوله عربية إسلامية كامنة في علوم الحديث (علم الجرح والتعديل) ومن يقرأ مقدمة ابن الصلاح والنصوص المتعلقة بتوثيق النصوص والمعارضات والمراجعات يعلم أن علم تحقيق التراث علم عربي وإسلامي. نحن الآن في حاجة ماسة إلى الاهتمام به ولا نترك هذا العم لتجار الكتب أو ما يسمى بـ «الكتبية» أصحاب المكتبات التجارية الذين ينقلون المخطوط أو الكتاب من الخط القديم إلى الخط المطبعي الحديث ويكتبون عليه تحقيق نخبة من العلماء ربما يكتفي بعضهم بتخريج بعض الآيات أو بتخريج بعض الأحاديث أو ترجمة الأعلام لكن لا يهتمون أبدًا لا بتوثيق النصوص ولا بمراجعة مصادرها ولا بتحقيق النص في حد ذاته.

وهل ترون أنه أثر سلبًا على التراث الإسلامي؟

وهذا التحقيق التجاري قد جر كثيرًا من الضرر على قراءة التراث قراءة واعية وعلى سبيل المثال فيما يخص تراث ابن تيمية هناك رسالة تسمى الرسالة المارديية حققت تحقيقًا تجاريًا وربما طبعت بعض الطبعات بدون تحقيق وفيها نص لابن تيمية إجابة على سؤال حول مدينة ماردين أو قرية ماردين التي يسكنها المسلمون والنصارى معًا وكان في وقت حرب، كان في وقتها دواعش أسوأ من دواعش اليوم فسئل ابن تيمية: يختلط أمامنا في صفوف القتال المسلم والنصراني و(المحارب الداعشي: بلغة عصرنا) فماذا نفعل مع هؤلاء؛ فقال: يعامل المسملون بما يجب أن يعاملوا به، وأما النصارى فيعاملون بما يعامل به؛ فكلمة «يعامل» نقلت من المخطوط القديم خطأً «يقاتل» فجاء المتطرفون والمتعصبون والذين ينتسبون زورًا إلى تراث ابن تيمية وظنوا أن كل نصراني في بلاد المسلمين ينبغي أن يقاتل، وما دام استحلوا قتاله فبناءً على ذلك استحلوا دمه وماله وعرضه وو إلخ.

هذا نتيجة سيئة من نتائج طباعة الكتاب إما غير محقق أو محقق تحقيقًا تجاريًا. هذا جر ربما المشاكل التي نعيشها الآن نتيجة القراءة الخاطئة لهذه الكلمة بالذات وهذه الرسالة؛ فلما حققت الرسالة تحقيقًا علميًا وقرأت قراءة صحيحة صححت في طبعاتها اللاحقة «فأما غير المسلمون فيعاملون بما يستحقون أن يعاملوا به، كما نص على ذلك الكتاب والسنة»؛

فالتحقيق التجاري جلب أو جر على تراثنا الكثير من المشكلات إما في قراءة للنص، وإما في فهم النص، وإما في توثيق النص، وهذه كلها خطايا يتحمل وزرها أصحاب المكتبات التجارية «أو الكتبية»؛ ولذلك أنا اقترحت على كثير من دوائر العلم في جامعاتنا المصرية أن تكون هذه المادة متطلب تسجيل للماجستير، فلا يلتحق بالماجستير إلا من يدرس مادة تحقيق التراث لأهميتها.

وهل الأفضل لطالب الدراسات العليا اختيار مخطوط لتحقيقه أم اختيار موضوع؟

تقصد اختيار كتاب لتحقيقه! نحن هنا في دار العلوم في مرحلة الماجستير نفضل أن نختار للطالب نصًا تراثيًا مهمًا في تخصصه يحققه الطالب ويخرجه للقراء والمثقفين في صورة محققة تحقيقًا علميًا موثقة منضبطة تفيد القارئ في مجال تخصصه لأمرين:

الأمر الأول يتعود الطالب الباحث على قراءة الجملة التراثية لأننا للأسف الشديد نجد كثيرًا من المشتغلين بالعلم وطلبة الماجستير والدكتوراه بعضهم – لا أقول كلهم – لكن الكثير منهم لا يجيد قراءة الجملة التراثية، وهذا نتيجة انحطاط المستوى التعليمي للأسف الشديد في جامعاتنا العربية فنحن نفضل في مرحلة الماجستير أن نختار للطالب مخطوطة في مجال التخصص الذي يبحث فيه الطالب.

الأمر الثاني: أن الفائدة في هذه المخطوطة نقدمها مصححة موضحة للمثقف المعاصر يستفيد منها الباحث وغيره.

أما في مرحلة الدكتوراه فنترك للطالب حرية اختيار الموضوع ويعرض على القسم المختص؛ ليبدي فيه رأيه إن كان مفيدًا؟ كان مبتكراً؟ كان فيه إحياء لفكرة قديمة تستحق الإحياء؛ ليستفيد منها الجيل المعاصر؟ ففي مرحلة الماجستير نفضل المخطوط، وفي مرحلة الدكتوراه نفضل الموضوع المرتبط بالعصر ومشكلات العصر.

يعد كتابك «عقيدة بلا مذاهب» من الكتب المجددة في فهم العقيدة. فما هي المحطات الرئيسة في هذا الكتاب؟

هذا الكتاب في الحقيقة نتيجة لجهد كبير نعيشه في قسمنا في دار العلوم منذ ما يقرب من ٢٠ أو ٢٥ سنة نحن في عالم الكتاب نعيش مشكلات أسهم المتقدمون إلى حد كبير في هذه المشكلات من منطلق حسن النية، ومن منطلق الدفاع عن الإسلام والعقيدة الإسلامية.

نحن في هذا الكتاب نطرح تصورًا جديدًا لدراسة العقيدة:

أولًا: علينا أن نسأل أنفسنا عن منهج القرآن الكريم في موقفه من العقل وتكليفه للعقل بالبحث في أي مجال من مجالات الوجود. الوجود ينقسم إلى وجود حسي يمثله عالم الشهادة، ووجود غيبي يمثله ما وراء المادة ابتداءً من عالم الغيب الذي تحدثت عنه الأديان السماوية وما يشتمله من مفردات كالإيمان بالملائكة والوحي والسمعيات الجنة والنار والحساب إلخ. حين نقرأ القرآن الكريم في منهجه وموقفه من العقل نجد أن القرآن الكريم في الـ ١٣ سنة المكية كان يكلف العقل تكليفًا مباشرًا بالنظر والتأمل والتفكير في آيات الله الكونية في هذا العالم الحسي عالم الشهادة من السماء إلى الأرض: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ .. – أَفَلَمْ يَنظُرُوَاْ ..– قُلِ ٱنظُرُواْ ..﴾ – كل آيات القرآن المكية تكلف العقل بالنظر في عالم الشهادة يجلي للعقل آيات الله في كونه تجليات الأسماء الإلهية وتجليات الصفات الإلهية في هذا العالم من الدقة والحكمة والقدرة والإرادة ووو إلخ؛ فهذا العالم معرض لتجليات الصفات الإلهية وهو مشاهد ومحسوس نراه نحسه نسمعه نشمه نتذوقه وهذه الروافد الخمسة – الحواس الخمسة هي مفاتيح العقل للتعرف على عالم الشهادة فيستطيع أن يؤسس علمه ومعرفته لعالم الشهادة على يقين من هذه الحواس، ثم نجد في القرآن الكريم انتقالًا من عالم الشهادة إلى عالم الغيب من خلال طرح مجموعة من الأسئلة وجد العقل إجابتها من خلال تأمله في عالم الشهادة في سورة الطور، نجد قوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ * أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ من خلال تأمل العقل في عالم الشهادة سوف يصل إلى الإجابة المقنعة البرهانية اليقينية، يجد الإجابة على هذه الأسئلة الثلاثة. وهي تمثل معرفة ضرورية برهانية علمية للعقل على هذه الأسئلة الثلاثة.

هذا انتقال علمي عقلي برهاني من عالم الشهادة إلى عالم الغيب. الذي يهمنا في هذا المقام أن القرآن كلف العقل بالنظر في عالم الشهادة؛ فما موقف القرآن من تكليف العقل بالنظر في عالم الغيب؟ لم يرد في القرآن الكريم آية واحدة كلفت العقل بالنظر في عالم الغيب لا على سبيل الوجوب ولا على سبيل الندب، بل نجد مطلب القرآن الكريم هو الإيمان بما أخبر به الوحي عن عالم الغيب وكانت أول سورة البقرة ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ ولو تأملت القرآن الكريم واستقرأت مفرداته من أوله إلى آخره لا تجد فيه آية واحدة تكلف العقل بالنظر في عالم الغيب.

قد يرد سؤال: لماذا لم يكلف القرآن العقل بالنظر في عالم الغيب وكلفه بالنظر في

عالم الشهادة؟ لأن العقل يملك أدوات البحث في عالم الشهادة لكنه لا يملك أدوات البحث في عالم الغيب، وليس معه من دليل إلى مفردات عالم الغيب إلا ما جاء به الوحي، فإما أن يؤمن بالرسول ﷺ وما جاء به الرسول ﷺ أو لا يؤمن هذه هي القضية الأولى فإذا آمن بالرسول ﷺ وما جاء به الرسول ﷺ يبدأ يتلقى عن الرسول ﷺ ما جاء به الوحي عن مفردات عالم الغيب هذه واحدة.

النقطة الثانية: أن القرآن الكريم في حديثه عن عالم الغيب لم يكلفنا بالبحث عن كيفية مفردات عالم الغيب: ما كنه الملائكة! كنه الصراط! كنه الحوض أو الكوثر، أو طبيعة الحساب! ما كيفية الله سبحانه وتعالى وما حقيقته! لم يرد نص حول هذه القضية. لم يرد في القرآن الكريم آية تبين لنا كيفية الذات الإلهية! كنهها! كيفية الملائكة! كيفية اليوم الآخر وما فيه! وإنما كان حديث القرآن الكريم عن هذه الغيبيات يطلب منا الإيمان بوجودها كما أخبر بها القرآن، وليس البحث في كيفيتها. لم يتحدث أبدًا القرآن الكريم عن كيفية أمر واحد من أمور الغيب وإنما كان مطلوبه إثبات الوجود إثباتها كما جاء بها النص وليس البحث في كيفيتها لماذا؟ لأن العقل لا يملك دليلًا على تصور أي كيفية لما أخبرنا به الغيب إلا مجرد الاسم؛ لذلك نجد في الآثار: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء فقط وبالنسبة للذات الإلهية نجد القاعدة القرآنية «ليس كمثله شيء وهو السميع البصير» فأي تصور للعقل عن الذات الإلهية مصدره عالم الشهادة هذه روافد الغيب إلى عالم الشهادة – الحواس الخمسة، فلا يصح تصور عقلي أبدًا للذات الإلهية بعيدًا عما استلهمه العقل من عالم الشهادة عن طريق الحواس؛ ولذلك لم يرد في القرآن آية تبين لنا كيفية الذات الإلهية ولا حقيقتها ولا كنهها، وإنما ورد الإيمان ربًا خالقًا وإلهًا واحدًا، وبدأ القرآن الكريم يعطينا قواعد كلية تمثل مبادئ للإيمان بالله وصفاته وبملائكته، وبما أخبر به عن اليوم الآخر.

هذه القواعد كلها للأسف الشديد ابتعد عنها علم الكلام ابتعادًا كثيرًا وبدأت كل مدرسة وكل فرقة تضع لنفسها تصورات عقلية عما أخبر به القرآن عن عالم الغيب، ويعتبرون تصورهم لما أخبر به القرآن عن عالم الغيب هو ما يجب أن يعتقده المسلمون.

من هنا بدأت فكرة كيف نحيي المنهج القرآني في العقيدة الإسلامية. القرآن الكريم فرق بين عالمين عالم الشهادة، وعالم الغيب، كما قلت، وكلف العقل بالبحث في عالم الشهادة ولم يكلفه بالبحث في عالم الغيب وكان حديثه عن الأمور الغيبية مطلوب القرآن فيها هو إثبات

وجودها فقط وليس البحث في كيفيتها؛ فإذا قرأنا في القرآن الكريم: أن الله غفور رحيم؛ أن الله سميع عليم، أن الله يجيء يوم القيامة والملك صفًا صفًا، أن الله ينزل إلى السماء الدنيا كما في الحديث أن الله استوى على عرشه؛ لا ينبغي أن يتطرق إلى العقل السؤال عن كيفية هذه الصفة؛ لأن القرآن لم يكلفنا البحث فيها، ولا أمرنا بالبحث فيها، ولا طلب منا البحث فيها أصلًا، فضلًا عن أن البحث فيها يدور حول الكيفية التي عليها الصفة. هذا السؤال مهم جدًا وينطبق على من أول الصفة، وعلى من تصور كيفية معينة للصفة. كلها تصورات عقلية تدور حول تكييف عقلي للصفة التي يمكن أن يقبلها العقل أو لا يقبلها العقل. وهل كلفنا القرآن بهذه القضية؟ أبدًا.

للأسف الشديد نجد أن مدارس علم الكلام أولًا: علم الكلام بدأ تاريخه بتاريخ المعتزلة ثم الأشاعرة، وهذه الفرق الثلاث الكبرى كل مدرسة قرأت القرآن وتصورت الآية المعينة التي تتحدث عن الصفات الإلهية تصورًا حسب عقلانيتها لهذه الصفة، وطلبت من روادها أو من أتباعها الإيمان بهذا التصور، ورفضت ما سواه. لكن: كل مباحث علم الكلام وهذا على سبيل الجزم تتعلق بتكييف الصفة الإلهية بتصور كيفية معينة للصفة الإلهية وبتصور تكييف معين للذات الإلهية، وهذا كله مناقض لمنهج القرآن الكريم؛ منهج القرآن الكريم مطلوبه هو إثبات الذات وليس البحث عن كيفية الذات إثبات الصفة، وليس البحث عن كيفية الصفة، بل إن القرآن الكريم جمع بين إثبات الصفة وتنزيه الله عن مماثلته للحوادث في هذه الصفة.

ففي الآية الكريمة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ الجزء الأول من الآية تنزيه: ليس كمثله شيء، والجزء الثاني: إثبات للصفة. وهذا هو المنهج القرآني الذي ينبغي أن يسير عليه الناس: إثبات بلا تمثيل، وتنزيه بلا تعطيل، كما جمع القرآن بينهما في آية واحدة. وينبغي أن يكون هذا هو القانون العام في الحديث عن الصفات الإلهية. ونفرق لأبنائنا طلبة العلم بين أمرين: لأن هذه التفرقة لها من الخطورة أثرها الواقعي الذي نعيشه الآن. نفرق في دراستنا للعقيدة بين مسائل العقيدة ودلائل المسائل على صحة هذه العقيدة. مسائل العقيدة لا اجتهاد لأحد فيها لا نفيًا ولا إثباتًا لا بالكثرة ولا بالقلة؛ لأننا تلقيناها من القرآن الكريم ومن السنة النبوية الصحيحة؛ فلا تقبل الزيادة ولا النقصان ولا الإضافة ولا الحذف. هذه مسائل العقيدة: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره، حلوه ومره، هذه المسائل محل اتفاق بين جميع المذاهب. هذه مسائل العقيدة. علم

الكلام كله لا يتصل بالمسائل وإنما يتصل بدلائل المسائل: كيف استدل المعتزلة على صحة هذه المسائل! كيف استدل الأشاعرة على صحة هذه المسائل! كيف استدل الماتريدية على صحة هذه المسائل! هذه التفرقة مهمة جدًا حتى نبين للشباب أن اختلافات المعتزلة مع الأشاعرة، والأشاعرة مع المعتزلة، والسلفيين مع الفرقتين لا يتصل بمسائل الاعتقاد وإنما يتصل بدلائل المسائل. فدلائل المسائل عند المعتزلة أبطلها الأشاعرة، ودلائل المسائل عند الأشاعرة أبطلها المعتزلة، ونتج عن هذا الخلاف بين المدرستين ما أسميه أنا بثقافة الإلزام.

فثقافة الإلزام هذه نريد أن نستلها ونتخلى عنها في دراسة علم الكلام ونجعل ونهيئ الطالب أن علم الكلام لا يتصل بمسائل العقيدة، وإنما يتصل بدلائل المسائل، والخلاف حول دلائل المسائل لا يترتب عليه لا تكفير ولا تفسيق وإنما هي اجتهادات كلية تدور بين الصواب والخطأ وليس بين الكفر والإيمان.

للأسف الشديد هذه الخلافات ورثتها الأجيال للأجيال التالية جيلًا بعد جيل حتى طفح السطح بهذا التطرف في الأحكام والغلو في الآراء وبدأت كل فرقة تناصب الأخرى العداء.

هذه قصة كتاب عقيدة بلا مذاهب الطريق إلى وحدة الأمة. وقد وضعت فيه الكثير من المفاتيح للباحثين؛ يمكن لكل باحث أن يأخذ قضية من هذه القضايا ويعالجها في بحث أكاديمي ماجستير أو دكتوراه. هذه قضية أضعها أمانة في أعناق الشباب المعاصر الآن كي نستل الخلافات والتعصبات في الآراء والغلو في الأحكام من جيل الشباب.

وما الفرق بين القراءة الظاهرية للنص والقراءة المقاصدية ؟

القراءة المقاصدية: هذا هو مطلبنا في اعادة قراءة علم الكلام أن نعيد قراءة علم الكلام قراءة مقاصدية، ماذا تعني هذه الكلمة؟ المتكلمون يشيع بينهم ما أسميه ثقافة الإلزام، أو بلغة العصر ثقافة التربص؛ الأشعري متربص بالمعتزلي والمعتزلي متربص بالأشعري والسلفي متربص بالاثنين السلفي المعاصر ولا أقصد بالسلفي هنا العالم. لا. هناك من ينتسب إلى السلف بمجرد إطلاق اللحية وتقصير الثوب ولا يعلم من السلفية إلا هذا المظهر. السلفية الأصيلة تعي ما عند الطرفين من أخطاء فترفضها وما عندالطرفين من حق فتقبله وتشكرهم عليه.

هذا ما فعله السلفيون القدامى أما المنتسبون إلى السلف في وقتنا الحاضر – فكما قلت – لا علم لهم بمنهج السلف إلا بإطلاق اللحية وتقصير الثوب.

القراءة المقاصدية حين أقرأ مذهب المعتزلة في خلق الأفعال أو القول بالصلاح والأصلح، أو في تأويلهم للصفات الإلهية لا أكتفي بقولهم: الاستواء يعني الاستيلاء، أو بقولهم: إن الله لا يريد لعباده إلا ما هو صلاح لهم؛ يعني الشر الواقع في العالم ليس مرادًا لله يعني يقع في ملكه ما لا يريد، أو أن الإنسان خالق لأفعاله يزاحم القدرة الإلهية، كما يقول الأشاعرة، هذا لا يقصده المعتزلة، وإنما يقصد المعتزلة من قولهم بأن الإنسان خالق لأفعاله أن الإنسان مسئول عن فعله أمام الله، ولا يجوز له أن يحتج بالقضاء والقدر على معاصيه يضع الإنسان مباشرة أمام مسئولياته؛ الإنسان بمعنى الإنسان حاكمًا كان أو محكومًا، حين يتكلمون عن الصلاح والأصلح لا يريدون الحجر على القدرة الإلهية، وإنما يفهمون قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾: يفهمون بقولهم بالصلاح والأصلح أن الله لا يفعل بعباده إلا ما فيه صلاحهم؛ لأن ضد الصلاح الفساد، والله لا يحب الفساد، ولا يفعل بعباده ما فيه فسادهم. هذا هو المقصد إذا أخطأوا في العبارة فأتجاوز عن الخطأ في العبارة وأبحث عن المقصد وراء القول بالصلاح والأصلح أبحث عن المقصد من القول بأن الإنسان خالق لأفعاله. حين يؤلون الصفة لا يريدون تعطيلها، إنما يريدون تنزيه الله (عما ظنوه خطأً): أن إثبات الصفة يستدعي التجسيم أو التشبيه فنزهوا الله عن ذلك، فالمقاصد هنا مقاصد نبيلة ومشروعة ودعا إليها الشرع لكن وسيلة الوصول إلى إثبات هذا المقصد (فيها) الخطأ في استعمال اللفظ المناسب وإقحام العقل في تصور كيفية معينة لما يتحدث عنه القرآن الكريم، وهذا الخطأ كما هو موجود عند المعتزلة هو موجود عند متأخري الأشاعرة كل متأخري الأشاعرة يؤلون الصفات بلا استثناء فالذي يجري على المعتزلة في التأويل يجري على متأخري الأشاعرة في التأويل؛ المقاصد هنا نبيلة عند الطرفين، هذا ظن أن إثبات الصفة يستدعي التشبيه والتجسيم فنزه الله عن ذلك، فالمقصد صحيح ونبيل ومشروع لكن وسيلة التعبير عنه خاطئة، فنحن نتجاوز التعبير الظاهري إلى البحث عن مقصد المتكلم حين أثبت فهو يثبت لله ما أثبته لنفسه ولا يقصد التشبيه ولا التجسيم، وحين أول المعتزلة هو لا يقصد التعطيل، وإنما يقصد تنزيه الله عما ظنه نقصًا لا يليق به.

فائدة المقاصد: أن أورث علم الكلام للأجيال الحاضرة بحسن نوايا المتكلم أن المتكلم

سواء كان معتزليًا أول الصفة أو أشعري أو سلفي مثبت للصفة حين قال بهذا الرأي يقصد إثبات ما ظنه كمالًا لله سبحانه وتعالى، أو ينفي ما ظنه نقصًا عن الله سبحانه وتعالى هذا المقصد في حد ذاته نبيل ومشروع لكن وقع الخطأ في التعبير عن هذا المقصد، فنحن ينبغي أن نتجاوز عن الخطأ في استخدام اللفظ ونبحث عن مقاصد المتكلمين.

ما الاستفادة التي يمكن للباحثين الاستفادة منها في مشروعك المشترك مع العالم محمد رشاد سالم في تحقيق كتب ابن تيمية ؟ وهل ترى أن ابن تيمية ظلم من أحبابه قبل خصومه؟

نعم، هناك فائدة كبيرة، الحقيقة كنت أتمنى – وسبحان من له الأمر والتدبير – أن يطول الأمر بالمرحوم الدكتور رشاد سالم؛ ليكمل خطته أو مشروعنا الذي كنا قد بدأنا فيه؛ وهو تحقيق كامل لكل تراث ابن تيمية، ما يتصل منه بعلم الكلام والفلسفة والفقه والتصوف؛ لأن هذا الرجل ظلم كثيرًا من محبيه – كما قلت – أكثر من ناقديه ومعارضيه؛ لأنهم نسبوا إليه أقوالًا وآراءً نتيجة القراءة الخاطئة في تراثه غير المحقق، ويمكن المثال الذي قلته المسألة الماردينية تمثل نموذجًا للأخطاء التي وقعت في تراث ابن تيمية وفي قراءة تراث ابن تيمية ينبغي أن يتوفر مجموعة من الشباب لإكمال هذا المشروع؛ لأن التحقيق التجاري للأسف الشديد أنا أعلم أن هناك مجموعات من الشباب تستل فصولًا من مطولات ابن تيمية والمتون الكبيرة ويخرجون أحاديثها وأعلامها ويترجمون لأعلامها ويكتبون عليها «تحقيق فلان» .. لا للأسف الشديد هذا العمل التجاري أساء إلى تراث ابن تيمية كثيرًا، وأتمنى أن تتبنى مؤسسة كما فعلت جامعة الإمام محمد بن سعود في القرن الماضي مع كتاب درء تعارض العقل ومنهاج السنة النبوية؛ تتبنى مؤسسة إعادة تحقيق ما تبقى من تراث ابن تيمية إكمالًا للمشروع الذي بدأه أستاذنا المرحوم الدكتور رشاد سالم، وكان لنا فضل الإسهام معه، فيه ولم يحل بيننا وبين إكمال هذا المشروع إلا اشتغالنا بجمع وتحقيق تفسير ابن تيمية في دقائق التفسير، وهذا كان محل اتفاق بيني وبين أستاذنا المرحوم دكتور رشاد سالم ثم شغلنا عن هذا الموضوع بعد عودتنا إلى القاهرة وأبث هذه الهمة في نفوس الشباب المهتم بتراث ابن تيمية أن يجدوا مؤسسة تتبنى هذا المشروع؛ لإكمال ما تبقى من تراثه ويخرج للقراء محققًا تحقيقًا علميًا موثقًا نصوصه محققة آراؤه.

ما زال بعض المعاصرين يعيدون نشر بعض الخلافات العقدية التراثية التي لم يعد يقول بها أحد. فما رأيكم؟

هذا من العبث الذي ينبغي أن يكف عنه الشباب، لا ينبغي إحياء الخلافات التراثية من جديد؛ لأنها تفرق ولا تجمع، وتشتت شمل الأمة أكثر مما هي عليه، وينبغي أن يشغلوا أنفسهم بمشاكلنا المعاصرة وليس بإحياء المشاكل القديمة.

وما الموقف العقدي الصحيح من الفرق الإسلامية المعاصرة؟

أنا لا أرى هناك فرقًا إسلامية معاصرة، وإنما هناك أتباع لمذاهب قديمة: الأشعرية في الأزهر وفي مصر، والماتريدية في آسيا وشرق آسيا، وبعض أتباع المعتزلة في العراق وفي هذه البلاد، وأتباع ابن تيمية في الجزيرة العربية.

إنما ليس هناك مجدد لأي مذهب من هذه المذاهب، وإنما هو يتأثر برأي سلفي يضيفه إلى رصيده الأشعري أو إلى رصيده المعتزلي أو العكس صحيح. لا أرى أن هناك فرقًا جديدة تستحق أن يتوقف أمامها الشباب، فهي فقاعات تظهر بحسب الجو الثقافي والاجتماعي والسياسي ثم تموت بنفسها.

لكم كتاب بعنوان من قضايا التصوف في ضوء الكتاب والسنة، هل هذا يعني أن الفكر الصوفي فكر أصيل في الدين الإسلامي ؟ وأنه لا يتضمن مخالفات عقدية؟ وهل يرى فضيلتكم أن ما يسمى بالتصوف الفلسفي الغالي قد تأثر بالديانات الشرقية والفلسفات الباطنية ؟

أصول التصوف – وكما اشرت في الكتاب – أصول اسلامية صحيحة ١٠٠٪ عاشها الرسول ﷺ حالًا ومقالًا، هذه الأصول تتمثل في الزهد، المحبة، المعرفة، الولاية، هذه القضايا الأربعة هي زبدة التصوف الإسلامي، وكل قضية من هذه القضايا الأربع يتفرع عنها مسائل فرعية حسب سلوك السائل، أو العارف، أو المحب، أو المريد، أو مدعي الولاية.

هذه الأصول تحدث عنها القرآن الكريم؛ ولهذا الكتاب قصة: كنت في المملكة العربية السعودية وطلب مني الأستاذ الدكتور عبد الله نصيف – شفاه الله وعافاه وجعل عمله في ميزان حسناته يوم القيامة –. طلب مني أن أضع برنامجًا لقسم الثقافة الإسلامية؛ ليتحول إلى قسم الدراسات الإسلامية يمنح درجة البكالوريوس في الدراسات الإسلامية، فكان

من بين المواد التي طرحتها مادة التصوف ومادة مقارنة الأديان. كانت كلمة التصوف وكلمة مقارنة الأديان بمثابة الصاعقة التي نزلت على آذان البعض، فتقوّل علي الكثيرون واشتكوني إلى الشيخ ابن باز – رحمة الله عليه وكان رجلًا منصفًا –.

حضر إلى ندوة في جامعة الملك عبد العزيز في أوائل الثمانينيات من القرن الفائت فجلست معه وتحدثت عن هذا الكتاب، وقلت له: إن شيخ الجزيرة العربية الإمام ابن تيمية متصوف، وله كتاب في التصوف «التحفة العراقية في الأعمال القلبية»، وله في التصوف «مرض القلوب وشفاؤها»، وله في التصوف «قاعدة المحبة»، وقد كلفت بها أحد أبنائي برسالة ماجستير في هذا الكتاب؛ لأن له كلامًا في المحبة الصوفية يكتب بماء الذهب، وله في النفس الإنسانية وكيف تتأتى منها المعصية إذا هي ابتعدت عن منهج الله. المهم بدون الدخول في تفصيلات وأهديته هذا الكتاب فسمح بطباعته في المملكة العربية السعودية، ولا زال يطبع في السعودية إلى الآن، والمكتبة التي تتولى طباعته إسمها دار اللواء في الرياض، وكان يوزع مجانًا ضمن ما يسمونه «الفسح» بمعنى: الترخيص للكتاب بطباعته وجواز قراءته. وشكرني الشيخ عبد العزيز بن باز – رحمه الله – على هذا الكتاب وهو الآن ما زال يطبع في المملكة العربية السعودية.

فالأصول إسلامية لكن ينبغي أن نفرق بين التصوف كمبادئ وقواعد وأمور ندب إليها القرآن الكريم وأمر بها وبين بدع المتصوفة وسلوك المتصوفة. هذا شئ نهى عنه الشرع.

ومما ينبغي أن يعلم أن الإسلام راعى الجانب الروحي في سلوك الإنسان، كما راعى الجانب المادي ووضع علاجًا للجانب الروحي، كما وضع علاجًا للجانب المادي، فعلاج الجانب الروحي يتمثل في أعمال القلوب. والتصوف كله قائم على أعمال القلوب – الزهد أنت تضع يدك بالقرش لتعطيه للفقير نحن نراك؛ لكن هل تعطيه للفقير لكي نعلم أنك كريم أم تقربًا إلى الله سبحانه وتعالى. الذي يعلم هذا الله، ولا يطلع على القلوب إلا الله، وكذلك المحبة والمعرفة والولاية، فكل أعمال الجوارح التي أوصى بها الإسلام في الأوامر والنواهي ترتبط بالجوارح ما لم يكن لها رصيد قلبي (هنا مجال التصوف) فليس لها ثواب عند الله، بل قد تكون نكبة على صاحبها؛ لأنه يدخل في باب النفاق والرياء. ينبغي أن يفرق الشباب بين أعمال الجوارح وأعمال القلوب. أعمال القلوب كلها هي علم التصوف. أما أعمال الجوارح ما لم ترتبط بأعمال القلوب فلا ميزان لها عند الله؛ لذلك كتاب قضايا التصوف في ضوء الكتاب والسنة فيه مفاتيح للباحث لكي يفرق بين المبدأ في ذاته والسلوك الشاذ الذي يقع على

يد الصوفية سواء كانت أفكار الحلول والاتحاد، أو وحدة الوجود أو الحلول. هذه الأمور لا علاقة لها بالأصول أصلًا لا نفيًا ولا إثباتًا، وإنما هي ثقافات وافدة إلى العالم الإسلامي إما من ثقافة الهند أو من ثقافة الفرس . نعم التصوف أصوله قرآنية دينية؛ لأنها متعلقة بأعمال القلوب، ولا نربط بين المبادئ وبين انحرافات المتصوفة. ولا تظن أن الطرق الصوفية التي نعيشها الآن تمثل التصوف في مبادئه وقضاياه الأولى إلا من رحم ربي حتى لا نعمم الأحكام.

وما تفسيركم لحالة إعادة إحياء التصوف البدعي ؟

لسنا في حاجة إليه ينبغي أن ننصح. كلمة التصوف البدعي تحتاج إلى توضيح هل المراد بالتصوف البدعي الطرق الصوفية الموجودة الآن! نعم البدع فيها أكثر من المندوب والسنن لكن لا نعمم الأحكام على الأفراد. هناك أفراد نواياهم طيبة لكن يساقون بالسياق الجماعي هذا مشكل في حد ذاته. كما قلت التفرقة بين مبادئ التصوف شيء وسلوك المتصوفة سواء على مستوى الأفراد أو مستوى الجماعات. الآن التصوف (مسيس) ويوظف سياسيًا في كثير من البلاد، وهذا ليس تصوفًا، سمه ما شئت لكن ليس تصوفًا ولا تعبيرًا عن التصوف.

أصدرت «سلسلة تصحيح المفاهيم» ما الهدف من إصدار تلك السلسلة؟

هذه السلسلة العدد الأول منها كان بسبب ظاهرة اشتهرت في قطر كان المظهر الذي يظهر عليه السلفي كي يعرف أنه سلفي أن يمسك السواك في يده ويضعه في فمه ذهابًا وإيابًا، وتقصير الثياب، وطول اللحية، ونرى من سلوكه ما يناقض المنهج الذي يمثله المنهج السلفي وظن البعض أن السلفية مذهب أو فرقة، فيقال: هذا فلان السلفي هذا من تلامذة فلان السلفي.

بينت أن السلفية ليست فرقة ولا مذهب، وإنما هي منهج قد يعيش المرء في القرن العشرين ويكون سلفي العقيدة والتوجه والمنهج، وقد يعيش المرء في القرن الأول الهجري وليس سلفيًا لا في المنهج ولا في العقيدة، حتى أفصل بين الشيخ وأتباعه ونسبتهم إلى المنهج السلفي الذي أساؤوا إليه بالمظهر أكثر من المخبر، وبين السلفية كمنهج؛ فأصدرت العدد الأول إذا لم تخني الذاكرة؛ كتاب« سلسلة تصحيح المفاهيم»؛ لكي نصحح للمثقف المعاصر مفهوم كلمة السلفية ماذا تعني ومن هم السلف؟ وكتبت فيه فصلًا خاصًا بهذا العنوان

«السلفية وضرورة النقد الذاتي»، ثم بعدها تناولت المصطلحات التي يتناولها الشباب والإعلام كالعلمانية والأصولية كل مصطلح من هذه المصطلحات يظهر في بيئة معينة ويرد إلينا محملًا بهموم بيئته، عدد آخر عن خلل في مسيرة الأمة: مجموعة أشياء يعيشها الشباب، وهي مظهر من مظاهر الخلل في ثقافتنا، هويتنا الإسلامية بين القبول والرفض.. إلخ، العدد الأخير من هذه السلسلة صدر بعنوان في «فقه السياسة الشرعية»، بعد أحداث ٢٥ يناير اختلط على الشباب الرأي (فمن يوالي السلطة القائمة يكون منافقًا ومن علماء السلطة؛ ومن يوالي المعارضين فهو عميل وخائن)، فكان لا بد من تبيان المصطلح ودلالته، وكيف تكون السياسة شرعية أو غير شرعية. نعم هذه السلسلة يعالج كل عدد منها مشكلة عشتها في حينها وحاولت أن أبين فيها رأي الشرع في هذا المصطلح، وكيف يستعمل، وما المعنى الوافد الذي ظهر به المصطلح في بيئته؟!.

وأنا الآن بعد أن شغلت بقضية فقه السياسة الشرعية في طريقنا للعدد الرابع عشر إذا أنسأ الله في العمر. ربما يكون عن «خلل في ثقافتنا الدينية» العنوان لم يتبلور بعد. قد يتوافق هذا العنوان مع الأفكار التي بذهني، والله أعلم.

ولماذا يؤثر الخطاب الديني المتشدد في السلفية الجهادية بالذات؟

درس معي طالب رسالة دكتوراه عن السلفية المعاصرة وقراءتها لتراث ابن تيمية. السلفية الجهادية، قرأت الرسالة الماردينية بالقراءة الخاطئة أن النصارى يقاتلون بما يقاتلون به. قرأت الرسالة الماردينية خطأً وظنت أن ابن تيمية يرى أن النصراني يقاتل وغير المسلم يقاتل. وقد بينت للطالب هذا وأشار إليه في رسالته فهم قرأوا ابن تيمية قراءة خاطئة ولو قرأوا تفسير بن تيمية للحديث الصحيح «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله»، ورأيه في أن آية السيف نسخت أكثر من ٥٠ أو ١٠٠ آية من القرآن؛ لعلموا أن ابن تيمية له رأي آخر، ولعلموا أن أهل الكتاب لهم حقوق علينا، كما أن للمسلم حقًا على الحاكم المسلم، فلأهل الكتاب من يهود ونصارى ولغير المسلم عمومًا حقوق على ولي الأمر ينبغي أن يستوفيها من الحاكم وإلا سئل عنه أمام الله يوم القيامة.

تعرض مفهوم السياسة الشرعية بين الدولة الدينية والدولة المدنية إلى لغط كبير بين المدرستين الإسلامية والعلمانية فما الموقف الحق من تلك القضية؟

أنا شرحت في «هويتنا الإسلامية في مفترق طرق» ليس في الإسلام دولة دينية، وليس في الإسلام أيضًا دولة مدنية بالمفهوم الأوروبي. كلمة الدولة المدنية في المفهوم الأوروبي تعني رفض كل ما هو مقدس (الدين: الإسلام أو أي دين آخر). وهذه أعلنها للجميع، ولا يعلو صوت فوق صوت الحاكم. مكيافيللي في كتابه الأمير؛ في الإمارة التاسعة وهو يتكلم عن الإمارة، صرح بهذا أن رأي الأمير فوق رأي الدين ورأي الكاهن، لا يتكلم عن المسيحية كدين، وإنما عن سلطة الكنيسة، وهذا لبس في المفاهيم يتكلم عن سلطة الكنيسة وليس عن دين عيسى عليه السلام. (ليس له رأي يعلو رأي الأمير، وإنما رأي الأمير لا يعارضه رأي آخر)؛ مقدس أو غير مقدس، مفهوم، وصرح بهذا جون لوك وهو يشرح معنى كلمة السياسة المدنية، فمفهوم الدولة المدنية الغربي مرفوض إسلاميًا .

أما مفهوم الدولة المدنية بمعنى: رفض الدولة الدينية، نعم هذا صحيح؛ لأنه ليس في الإسلام لا كهنوت ولا دولة دينية يحكمها رجل دين؛ لأن السياسة الشرعية قائمة على مبدأين: جلب المنفعة ودرء المفسدة وجلب المصلحة. كل ما يحقق مصلحة للأمة ما لم يتعارض مع نص شرعي صحيح فهو سياسة شرعية حتى لو لم يرد به نص. وكل ما يدرأ عن الأمة مفسدة هو سياسة شرعية حتى لو لم يرد بها نص. هذا أسميه سياسة مدنية وليس سياسة دينية. والسياسة كلها تنتمي إلى ما هو مدني بالمعنى الذي لا يرفض الرأي الديني أو المقدس كالمعنى الغربي؛ فالتزاوج بين الاثنين يحتاج إلى توضيح المعنى الغربي مرفوض، والمعنى السياسي الشرقي مقبول. ومعنى السياسة التي لم يرد بها نص إذا حققت مصلحة هي سياسة شرعية، وقد أوضحت هذا بجلاء في «فقه السياسة الشرعية» لمن أراد المزيد.

لكم كتاب بعنوان «قضية التنوير بين الفكر الغربي والفكر العربي»، هل هذا يعني قناعتكم بأن العلمانيين العرب نسخة مكررة من العلمانيين الغربيين ؟

هذا صحيح؛ إلى حد كبير؛ لأن العلمانية بالمفهوم العلماني الذي نعيشه الآن تعني رفض كل ما هو مقدس، حتى نادوا بحذف المادة الخاصة بالمرجعية الإسلامية للدستور فهي ترفض كل ما هو إسلامي أما إذا كانت العلمانية بمعنى الاحتكام إلى العلم والمبدأ العلمي

والمنهج العلمي فهذا إسلامي وليس علمانيًا، وظهر قبل ظهور مصطلح العلمانية أيضًا. وهذا من المصطلحات التي تحتاج إلى توضيح.

رفضها جملة هل يعني رفض العلم؟ هذا خطأ. إنما قبولها جملة هل يعني قبول ما فيها من رفض للإسلام ومبادئ الإسلام وتحكيم الإسلام؟ هذا مرفوض. هذا من المصطلحات الغامضة التي رفضها جملة أو قبولها جملة فيه إساءة للمنهج.

وهل يمكن أن نقول: إن الفكر الإسلامي فكر تنويري؟

مائة في المائة. الفكر الإسلامي الصحيح فكر تنويري؛ لأن التنوير على مستوى بناء العقلية أو بناء الإنسان. ثقافيًا عندنا العلم والعقل مطالب شرعية، اجتماعيًا: المساواة مبدأ إسلامي، الحب، العدل، والخير والشورى مبادئ إسلامية هذا تنوير على مستوى الثقافة وعلى مستوى الاجتماع وعلى مستوى السياسة. لكل مستوى من هذه المستويات الثلاثة مبادئه التنويرية التي أمر وكله بها القرآن الكريم. فالفكر الإسلامي الصحيح تنويري قبل ظهور مصطلح التنوير.

كيف تواجه الأمة قضية التغريب واستلاب الهوية، وهل لمصادمة الإيمان سبب فاعل في انهيار الأمة وانحطاطها؟

الجزء الثاني صحيح مائة بالمائة. أما الجزء الأول فبإحياء الإسلام الصحيح. مواجهة التغريب: كل ما هو وافد لا ندعو إلى رفضه جملة، وإنما نتأمل ما فيه من أمور تنهض بالأمة ولا تتعارض مع أصولنا الدينية نقبلها ونشكرهم عليه. أما ما عندهم من مثالب وعادات وثقافات أخرى تتعارض مع ديننا فنرفضها. هذا واضح.

فيما يتعلق بانهيار الأمة بمصادمة الإيمان: الإيمان في الإسلام يعني إحياء الجانب الغيبي الروحي في الإسلام والإنسان ليس كتلة مادية صماء نتعامل معها بقوانين مادية، وإنما بجانب مادي وجانب روحي. ما لم يحيا الجانب الروحي لينهض بالجانب المادي في البنية الإنسانية؛ فنحن نعيش مع حيوان وليس مع إنسان. إحياء الجانب الروحي مصدره هو الإيمان بمبادئه وقضاياه ومسائله إذا فات الإنسان هذا الجانب الروحي فنحن نتعامل مع حيوان في بنية إنسانية فإذا فقد الإنسان جانبه الروحي لن يبقى منه إلا الجانب المادي الذي يتساوى فيه بالحيوان.

ومن وجهة نظركم: ما أسباب تنامي ظاهرة الإلحاد بين شباب الأمة، وكيف السبيل إلى مقاومتها ؟

هذا له أسباب كثيرة يشارك فيها تدني الخطاب الديني وتسييس الخطاب الديني، واقتصار الخطاب الديني على لغة الجنة والنار، وعدم معايشة مشكلات العصر. الخطيب على المنبر يأخذ الإنسان من المسجد الذي بناه في القرن الواحد والعشرين، ويعود به إلى مشاكل عاشها المسلمون الأوائل في القرن الأول، هو يريد أن يعيش مشاكله ويحل مشاكله بمنطق إسلامي ولا يستدعي مشاكل القدماء، هذا خلل ينبغي تصحيحه. هذا من الأسباب الأساسية بنمو ظاهرة الإلحاد فضلًا عن عوامل كثيرة تحتاج إلى تفصيل.

لماذا يتعمد بعض المثقفين تصوير أنه لا سبيل إلى النهوض بالأمة إلَّا بانسلاخها من الماضي والتحرر من قيود التُّراث، وأن التقدم مرهون باتباع الحضارة الأوربيَّة التي لم تَقُم إلا بعد انسلاخها من الماضي؟

هذه دعوة قديمة ثبت فشلها منذ دعوة طه حسين وسلامة موسى وقاسم أمين إلى أن يعيش الشرق كما عاش الغرب حذو القذة بالقذة – كما يقولون –. وينبغي أن هذه الدعوة تقابل بما هو مفيد في تراثنا علميًا ومنهجيا وليس بالجوانب التقليدية وتراثنا مليء بالكنوز التي تحتاج إلى إثارة الغبار عنها حتى يعلم الآخرون أن عوامل النهضة كامنة في تراثنا، وقد استعاروها منا في أكثر من موقف وصدروها إلينا بلغتهم هم؛ فظننا خطأً أنها بضاعة غربية والعيب فينا وليس فيهم، والتقصير منا وليس منهم. وكثيرًا ما نحمل أخطاءنا وأوزارنا على أعناق الآخرين من باب (الاستسهال): أسهل طريقة نحملها للقضاء والقدر، أو نحملها على الاستعمار. لا: نحن نعيش حالة من السكون العقلي منذ ثلاثة أو أربعة قرون ونجني الآن نتيجة هذا السكون العقلي تخلفًا وفقرًا وجهلًا. وهذه سنة من سنن الله في كونه لكي ننهض من عوامل هذه السنة فلنبدأ في معالجة الأسباب التي أورثتنا هذه القضية.

Copyright of Journal of Sharia & Islamic Studies is the property of Kuwait University, Academic Publication Council and its content may not be copied or emailed to multiple sites or posted to a listserv without the copyright holder's express written permission. However, users may print, download, or email articles for individual use.

www.manaraa.com